

المحاضرة الثالثة: النزعة الخلدونية في الفكر المعاصر

(توظيف الفكر الخلدوني بين النزعة العلمية والنزعة الايديولوجية)

الجزء الاول

تلعب التغيرات العميقة التي تطبع التاريخ دورا هاما بل وتفرض رؤى جديدة وبالتالي طريقة خاصة إن لم تكن جديدة في كتابة وتدوين الأحداث.

1. بيئة ابن خلدون أساس نزعته العلمية:

"ولا شاهد أبلغ من هذا، عند ابن خلدون، من ظاهرة الانتشار البدوي التي مارست طيلة العهد الوسيط تأثيرا هو الطاعون الأسود ذو الآثار التخريبية الفادحة"¹. هكذا حدثين منحا بيئة ابن خلدون تشكيلا سكانيا وسياسيا واقتصاديا وحتى بيئيا متبدلا، لذلك لم يكن باستطاعته اغفال أهمية التدوين. وهذا ما نلمحه من خلال قول ابن خلدون: "لقد احتاج هذا العهد، من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها..."²، أي انه احتيج لمؤرخ يفرج طاقاته وإمكاناته في عملية وصف الحالة العامة في تلك الفترة.

يعتبر القرن الرابع عشر قرن انهيار حضارة وصعود حضارة أخرى، حيث شارفت الحضارة الإسلامية على الانهيار والانحطاط لتكون الحضارة الأوربية على وشك الصعود والظهور حيث بدأت ملامحها، وهي ما يعرف بالنهضة الأوربية، لقد عاش وعاش ابن خلدون هذه المرحلة خاصة مرحلة انهيار الحضارة الإسلامية فأرخ لها، وكتب ما قد لاحظته من تقلبات المجتمع الاسلامي، وما كان يحدث من حركية في الدول والأمصار وخاصة دول الاندلس والمغرب العربي، فان انتاجه معبرا صادقا معلا ذلك بما يتماشى والمناهج النقلية

¹ سالم حميش، الخلدونية في مرآة فلسفة التاريخ، ص 111.

² ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، 1981، ص 43.

مقياس الفكر الخلدوني

المحاضرة الثالثة

والعقلية، فبنى فلسفة قائمة على الواقعية والتبريرية، فاتسمت أفكاره بالشمولية من جهة وبالتخصيص من جهة أخرى، ومنها ما قاده ذلك إلى ظهور علوم وفنون مثل العمران البشري والذي يقال عنه أنه فلسفة الحضارة ومنها عالج ما يتعلق بالإنسان في اقتصاده وفي سياسته وتجمعه وأمنه وتعليمه... وغيرها من الأشكال التي عمد إلى تسليط الضوء عليها من خلال البحث والدراسة فيها.

"ولعل ثقافة ابن خلدون التي جمعت بين الثقافة الإسلامية والثقافة اليونانية أو العقلية،

إنما تكون قد ساهمت بشكل كبير في تنوعه الفكري والجديّة التي اتسمت بها أفكاره"³

من الواجب على كل باحث أو دارس لإرث ابن خلدون أن يكون حريصا على دراسته ودراسة فكره في إطاره الأصلي "من خلال إطار تجربته وظروف عصره، وعلى ضوء الثقافة التي عرف منها، فإن هذا لا يعني اننا نعتبره فكرا ميتا مقطوع الصلة باهتماماتنا ومشاغلتنا الراهنة، إن الفكر الخلدوني هو فكر فلسفي، والفكر الفلسفي الأصيل يتجاوز عصره بمقدار ما هو نتاج هذا العصر نفسه، إن مقدمة ابن خلدون هي باجماع الباحثين تراث انساني قيم مازال رغم كل ما كتب عنه، في مزيد الحاجة إلى الدراسة والتحليل، ليس لأن هذا التراث الثمين يعكس بقوة وعمق خبايا وتفاصيل أهم وأخطر حقبة من التاريخ العربي الإسلامي وحسب، بل لأنه يعكس أيضا، ولربما بنفس الدرجة من القوة والعمق جانبا مهما من جوانب وقعنا العربي الراهن، هذا الواقع الذي تتواجد فيه جنبنا إلى جنب بنيات القرون الوسطى، والبنيات الجديدة التي خلفها عالم اليوم"⁴.

لقد أدرك ابن خلدون وكان واعيا أكثر لحقيقة الفترة التي قدر له العيش فيها، بحيث استوعب خطورة الاحداث التي عرفها العالم العربي والاسلامي، "لقد انتبه بعبقرية إلى ذلك

³ رابع مراجي، ابن خلدون وفلسفة التاريخ، فلسفة التاريخ -جدل البداية والنهاية والعود الدائم، تأليف مجموعة من الاكاديميين العرب ، دار الروافد الثقافية، ابن النديم، ط1، 2012، ص 101.

⁴ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص10.

من إعداد الأستاذة حورية بن قدور
جامعة محمد خيضر

بسكرة

مقياس الفكر الخلدوني

المحاضرة الثالثة

المنعطف التاريخي الخطير الذي قدر له أن يعيشه ويتقلب في مساره ومعارجه، والذي كانت دلائله تشير كلها إلى أن شمس الحضارة العربية الإسلامية أخذت في الأفول⁵.

الكثير من الباحثين والدارسين يرون أن ابن خلدون حاول أن يفلسف التاريخ الإسلامي، وهي محاولة فريدة، ربما لا نجد لها مثيلاً خاصة في تراثنا العربي الإسلامي الفكر يعلى ضخامته، وبالتالي يكون ابن خلدون انفرد لنفسه بتصوير خاص به للتاريخ الإسلامي ومسيرته من خلال ظروف تجربته ومعيشته، مستمداً أكثر على وقائع عصره وأحداث ومعطيات اجتماعية وتاريخية للمجتمعات التي عاش فيها وعاش أهلها ودرس أحوالها.

ولذلك بات من الضروري لفهم النظريات الخلدونية على حقيقتها، استجلاء الظاهرة الخلدونية بكامل أبعادها، إن تجربة ابن خلدون السياسية والاجتماعية والعلمية ونظرياته في هذه الميادين نفسها، جانبان متكاملان يشرح أحدهما الآخر ويتممه.

الظاهرة الخلدونية ممارسة اجتماعية ومعاناة نفسية، والنظريات الخلدونية تعبير عن تلك الممارسة وتفجير للطاقات التي جندتها هذه المعاناة، الظاهرة تكشف عن مسائل النظرية، والنظرية توضح أبعاد الظاهرة، والجانبان معاً مظهران لحقيقة واحدة، تشكل جوهر التجربة الخلدونية، هي امتزاج الفكر بالممارسة امتزاجاً قوياً خاصاً، هو سر عبقريته ومنبع أصالته وإلهامه.

⁵ محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص10.